(12)

كـوخ الصـفيح

احدي عشر خريفا مضى...
كوخ الصفيح لم يتغير وساكنوه شحبت وجوهم وافتقدت معالمها ....
في الخريف الماضي رحل فتحي .. دفنوه في سفح الجبل كان ذلك صباح عاصف .. السماء كانت سوداء كل شيء كان اسود.
الذكريات الحزينة تعود، يحملها خريفا جديد، الخريف الثاني عشر " لا " ليس الخريف الجديد .. ليس الخريف الثاني عشر الخريف لا يبلي لا يمضي انه نفس الخريف الذي مات فيه فتحي .. هكذا قالت فاطمة ومرارة الأسى تلف قسمات وجهها الطيبة.
الصبح بلا شمس بلا ضياء، الظلمة حالكة .. وقلب فاطمة يدق بعنف يرتعش، الشمعة أيضا ترتعش والعاصفة قويه والسماء، اين السماء؟ السماء لا ترى من الكوخ .
ما أرعبه من صباح بلا شمس
انه يذكرها بزوجها الفقيد.
لقد كان ممدا هنا علي الحصير يحتضر لم تكن انذاك بالكوخ سوي شمعة واحدة لكن الكوخ ابتلعها فقد بدأت تتلاشى وانبعث منها حزمة الضوء الملونة ثم اختفت كما كان وجه فتحي هادئا وحزمة الضوء الملونة تغمره بالظلال والالوان كان أقوي من الموت لقد ظل يحدق الي اعلى . سقف الكوخ لم يكن قويا كنظراته فعيناه لم تنطفئا لقد كان ممددا هنا علي الحصير يحتضر فتحي كان هنا .. فتحي كان هنا ..
ومدت يدها كأنما تتحسس جسمه النحيل فاصطدمت بسالم صغيرها الوحيد انه ينام نوما عميقا. هذه الرعود المجنونة لم توقظه ..

البارحة قبل ان ينام كان يرتعش من البرد وجهه الصغير كان اصفر من زهور الخريف لكنه كان يملأ الكوخ بروحه المرحة الحلوى .. للدموع التي كانت تدور في عين امه اشعلت في عينه احلاما كبيرة فكان لا ينقطع عن الكلام ..

لقد قال لها سأحطم هذا الكوخ يا امي لابني لك دارا كبيرة، أكبر من هذا القرية لكن هذا الكلام لم يزد دموعها الا انهمارا فسالم لا يزال في ربيعه الحادي عشر .. لا بل في خريفه الحالي الحادي عشر، الناس في اكواخ الصفيح

لا تقاس اعمارهم بالربيع .. انسان الكوخ يعيش خريفا دائما .. ما أطيبك يا ولدي .. انحنت لتحضنه لكنها لا تريد ازعاجه لا تريده ان يستيقظ في هذا الصباح العاصف، يكفي ان تظل عيناه معلقتين به، بوجهه الصغير، بيديه المختلطين بالدهان الأسود، بقميصه الممزق المليئ بالبقع ما أطيبك يا ولدي ..

وادنت حاشيه ثوبها البالي من فمها ثم بللتها وشرعت تزيل من يديه الدهان الأسود فسالم يرحل عن القرية كل صباح الي المدينة ليمسح احذيه الناس ويعود مع الليل منهوكا .. يحمل صندوق الخشب وعليه الدخان الأسود .

العاصفة تشتد .. ما ارعبه من صباح بلا شمس .. سالم تعود ان يصحو في هذا الوقت لكنه الآن غارق في نوم عميق اذن يجب أن توقظه ..

والعاصفة؟ والبرد؟ والظلام؟

لا لن توقظه، الارض مبتلة وسالم بلا حذاء .. انها تخاف ان يقع في ساقيات القرية ولكن ... الكوخ ليست فيه كسره خبز، الكوخ فارغ، ليس هناك سوي حصيره واناء خزفي والباقي جدران وسقف من صفيح حتي الشمعة الأخيرة التي تغالب ظلام الكوخ ستنطفئ انها توشك علي التلاشي ...

هل توقظه؟ ولماذا توقظه؟
في هذا الصباح العاصف إذا ايقظته سيرحل عن القرية سيحمل صندوقه الخشبي وعليه الدهان الأسود ليمسح احذيه الناس في المدينة .. ليطوق المدينة بلا حذاء .. قطرات كبيرة بدأت تسقط من سقف الكوخ المطر ينهمر بعنف وفاطمة تلتصق بصغيرها تحميه من هذه القطرات وشيء اشبه بالباب ينفتح فيصدر صوتا متقطعا كأنين فتحي قبل ان يدفنوه في سفح الجبل وبدأت تتسلل من شقوق الكوخ خيوط رمادي لكن العاصفة لم تهدأ وسالم لم يستيقظ .. الشمعة تنطفئ ووجهه الصغير يغرق في خيوط الضياء الرمادي . تحرسك عنايه السماء
يا ولدي .

لمعت عيناها بوهج من الحنان وهي تتطلع إليه واشرقت شفتاها الكريمتان بأبتسامه أكبر من الكوخ أكبر من القرية كان بإمكانها ان توفر عنه عناء هذا اليوم فهي تغسل ثياب ناس المدينة لكن ناس المدينة لا يغسلون ثيابهم في صباح بلا شمس ، المطر ينهمر اليوم بغزاره وتراءت امامها احواض الغسيل وفقاقيع الصابون و اكداس الاثواب القطنية والصوفية التي كانت تغسلها لناس المدينة في الايام المشمسة، لك الله يا ولدي .
تنظر الي ثياب سالم الممزقة الباليه وتذكرت المعاطف الصغيرة التي كانت تغسلها وتذكرت الاولاد الذين يلبسونها .. انهم لا يمسحون احذيه الناس .
فتحي قبل ان يختفي من الكوخ كان يحمل الحلويات لسالم كلما عاد من المدينة وقتئذ لم يكن سالم يرحل عن القرية ليمسح احذيه الناس أحد عشر خريفا مضي ...
وكوخ الصفيح عمره أحد عشر خريفا، انه لم يتغير رغم الصدأ الذي يكسوه .. جدرانه لازالت قائمه انه لا يزال كوخ الصفيح .. سالم فتح

عينه في ظلام هذا الكوخ لقفناه وقتذاك في صفحات الجرائد التي كان يستعملها فتحي في بيع الخضروات لأهل المدينة فتحي امضي عمره بائع خضر متجول ليعود ذات ليله
الي القرية بلا عربه لقد سلبوها منه اخذوا العربه والخضار ومنذ ايام كانوا سيسلبون من سالم صندوق الخشب وعلب الدهان .. لا .. لن اوقظه سالم في هذا الصباح العاصف إذا رحل عن القرية لن يعود سيسلبونه مني. لا. لا ...
لماذا تصرخين هكذا يا امي؟
لماذا تبكين؟ ألم أقل لك سأحطم الكوخ لأبني لك دار كبيرة .
كان سالم قد استيقظ وصوت فاطمه المخنوق بالدموع كان يرتفع ويرتفع .. ما ارعبه من صباح بلا شمس. المطر ينهمر بغزاره والزوبعة تشتد وسالم يبحث عن الصندوق الخشبي وعلب الدهان الأسود ليرحل عن القرية ...
عيناه الريفية كان فيها طموح أقوى من الزوبعة .